الفصل التاسع عشر

مفاجآت القفزة الأخيرة

- ☐ إن الدول العظمى لا تعنى أخلاقيات عظمى، إنها فقط..
  تعنى مصالح عظمى، وهذا هو كل شىء
- ☐ مصر نقلت صواريخها على شاطئ القناة قبل ساعات
  من وقف إطلاق النار
- ☐ هستيريا إسرائيلية ونيكسون لرابين:

«لدى ما أعانيه من ضغوط سياسية.. وعليكم الإذعان»

أدركت غولدا مائير أنه طالما أن هنرى كيسنجر، وهو عين إسرائيل وأذنها داخل الإدارة الأمريكية، لم يستطع أن يفتى بأى مخرج، وتصرف باعتباره عاجزا عن الحيلة. فإن الأمر فى الإدارة الأمريكية جاد بأكثر مما تتصور، الأمر فى هذه المرة يتعلق فى مبادرة نيكسون، وإن كان الإعلام يسميها «مبادرة روجرز» بل إن نيكسون نفسه لم يدفع بتلك المبادرة من الأصل إلا تحت إلحاح مصالح أمريكية محددة، رأى أن من مسؤوليته كرئيس أن يحميها ضد حالة غير مسبوقة من الغليان عمت العالم العربى بمجموعه، تضامنا مع هؤلاء المقاتلين المصريين، غير المعروف أسماؤهم، الذين عبروا بصمودهم فى جبهة القتال بقناة السويس، عن رفض كامل وشامل لعملية إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط التى استهدفتها حرب يونيو ١٩٦٧، وهذا الغليان العربى الشامل، يريد نيكسون الآن نزع فتيله الاساسى، وهو حرب الاستنزاف المصرية، ولأنه رئيس يتمتع بخبرة واسعة بالسياسات الدولية، فإنه يعرف أنه لا شيء يتم مجانا.. مطلقا، فهناك ثمن سياسى محدد على الولايات المتحدة أن تلتزم به مقدما.. إذا كانت تريد منع الاحتمال الأسوأ، وحينما التزمت الولايات المتحدة به، فإن هذا يعنى اوتوماتيكيا أن تنصاع إسرائيل.. وتطيع. إنها بالطبع تستطيع أن تتظاهر بالسخط، والتذمر، والشكوى داخل غرفة مغلقة وخط تليفونى مباشر، ولكن فى النهاية: لا شيء سوى بيت الطاعة.. حرفيا.

إن السفير الاسرائيلى فى واشنطن، إسحاق رابين تلقى مكالمة من غولدا مائير، ومن أيجال ألون نائب رئيسة الوزراء، ومن أبا ايبان وزير الخارجية، ومن جوزيف تكواه مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة، ومن الجنرال بارليف رئيس هيئة أركان حرب الجيش و: «آلاف من الكلمات.. الكثير منها كلمات حانقة وغاضبة، وغولدا مائير فى غضبها وحنقها توبخنى من جديد، ولكن الورطة ظلت بلا حل»!

والورطة كانت بسيطة ومعقدة: إن إسرائيل ظلت تتوسل سرا إلى الولايات المتحدة، منذ خمسة أشهر على الأقل، للحصول من المصريين على وقف لإطلاق النار، إن حرب الاستنزاف التى يقوم بها رجال اليوم السابع هى أول حرب حقيقية تهزم فيها إسرائيل ولهذا تريد وقفها بأسرع وقت، والمصريون رفضوا بشكل قاطع أى وقف لإطلاق النار، لقد تحمل المصريون لشهور قبلها ضرب أطفالهم، وعمالهم المدنيين المجردين من السلاح،

وتحملوا شحنات السلاح الامريكى المتطور، وقبلوا عن اقتناع استشهاد أبنائهم فيما بدا أنه صــراع غير متكافــىء بالمرة، ولكن صلابة المصريين فى المقاومة لم تكن فى أية لحظة محل شــك، إنهم لا يقاتلون من أجل سيناء، فســيناء لديهم لو أرادوا، بعرض رسمى أمريكى، ومعها قطاع غزة وبلا أى قتال، منذ نوفمبر ١٩٦٨، وبلا أى قيود ولو حتى نزع سلاح متر واحد من سيناء وبعرض اسرائيلى معلن وواضح ومحدد.

لكن المصريين «رجال اليوم الســابع» الذين قاتلوا فى حرب الاســتنزاف فعلوا ذلك من أجل شــيئين محددين: انســحاب إســرائيل الكامل من كل الاراضــى العربية المحتلة، وحقوق الشــعب الفلســطينى، والذى عبر عن إرادة المصريين فى تلك المرحلة كان هو نفس الشــخص الذى أرادت السياسة الأمريكية إذلاله علنا، وعمليا، مستخدمة إسرائيل كأداة فى التنفيذ. وكان جمال عبد الناصر يعرف أنه ليس مطلوبا، حيا أو ميتا، لشــخصه، إنه مطلوب كموقف، وسياسة، واختيار، ومستقبل يستلزم «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» وكلما سقط شهيد مصرى فى ميدان القتال دفاعا عن هذا الاختيار، كان لابد أن يشعر جمال عبد الناصر بأنه مدين شخصيا لتلك الدماء حتى لا تذهب هدرا، فتلك الدماء ذهبت إيمانا بقضية، ولابد له حين يتفاوض أن يدرك أنه يتفاوض باسم تلك الدماء، ومن هنا كان إصرار مصر فى تلك المرحلة على أن تدقق.. وتشــك.. ولا تعطى ثقتها.. ولا ترد من أول عرض.. وأن تدرس وتحســب قبل أية استجابة، فلم يكن رفض طلب رونالد بيرجس مقابلة جمال عبــد الناصر، وبعده محمود رياض، يصدر عن اســتعلاء، أو عن تصور بأن مصر أصبحت فجأة هى إحدى القوتين العظميين فى هذا العالم، ولكنه كان تعبيرا عن اســتيعاب لدرس ســابق معجون بقدر كبــير من المرارة، درس يقول: إن الــدول العظمى لا تعنى أخلاقيات عظمى، إنها فقط.. تعنى مصالح عظمى، وهذا هو كل شىء.

الحلو والمر.. معا

وفــى الطريــق الآخر كان واضحا أن أكثر من يدرك ذلك، ولأســباب مختلفة تماما، هو ريتشــارد نيكسون، إنه يريد بالدرجة الأولى حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة، وإحداها إسرائيل، وحينما دفع إلى الأضواء بمبادرته الجديدة التى سميت مرة «خطة روجرز».. ومرة أخرى «مبادرة روجرز».. فإنه كان يقدم لإســرائيل الحلو.. والمر.. معا، إســرائيل متلهفة على أن يوقف المصريون حرب الاستنزاف، والولايات المتحدة تدعمها وتساعدها فى ذلك،

ومصر تريد ثمنا سياسيا محددا ومعلنا، والولايات المتحدة ليست لديها أدنى فرصة لتحقيق النصف الأول من الصفقة.. إلا إذا ضمنت وتعهدت بالنصف الآخر من الصفقة.

تلك إذن هى حدود المبادرة الأمريكية التى امتدت لسبعة شهور، باسم «خطة روجرز» أولا.. ثم «مبادرة روجرز» ثانيا، إنها مبادرة تتم بهدف واحد هو المحافظة على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، وإسرائيل مجرد جانب واحد فيها.

ووسط صدام المصالح الدامى هذا.. من الطبيعى تماما، وان كان سيصبح ملفتا بالمقارنة مع فترات لاحقة، أن احد الطرفين لم يحاول مطلقا التمحك فى بعد شخصى لما يجرى، فعلى المستوى الشخصى.. كان جمال عبد الناصر يقدر تماما خبرة ريتشارد نيكسون العميقة فى الشئون الدولية، وكان يدرك أيضا أن نيكسون من طراز السياسيين الأمريكيين القليلين الذين تجاوز اهتماماتهم ساحل المحيط الاطلنطى، إن نيكسون ربما يكون محل جدل داخل الولايات المتحدة لأنه جمهورى، ويمينى، ومحافظ، ومحارب تقليدى للشيوعية وكل ما يحتمل أن يكون حتى مجرد يسار بغير علاقة بالشيوعية، ولكنه على الأقل يبذل جهدا لفهم مشاكل الشعوب الأخرى، والأهم من ذلك أن لديه دائما تصورا محددا لمصالح الولايات المتحدة التى تريد المحافظة عليها، حتى لو اختلف معه الآخرون فى تشخيصها.

وربما من أجل ذلك حرص جمال عبد الناصر على أن يعامل ريتشارد نيكسون معاملة خاصة، حينما جاء الأخير إلى مصر فى يونيو سنة ١٩٦٧.

ونيكسون الذى جاء إلى مصر وقتها كان مواطنا أمريكيا عاديا، على الرغم من أنه عضو فى الكونجرس الأمريكى ويحمل خطاب توصية رقيق اللهجة من الرئيس الامريكى وقتها- جون كيندى- الذى هو بالصدفة كان منافس نيكسون فى آخر انتخابات للرئاسة، وفاز عليه ضد كل التوقعات فانتقل نيكسون بالتالى من منصب نائب الرئيس فى عهد إدارة دوايت ايزنهاور.. إلى مواطن أمريكى عادى فى عهد جون كيندى.

بتلك الصفة إذن استقبل جمال عبد الناصر ريتشارد نيكسون فى القاهرة، وتبادل معه الحديث فى الشئون الدولية، واستمع إلى انطباعاته بعد أن زار موقع العمل فى بناء السد العالى فى أسوان، حيث قال نيكسون علنا: «إن قرار الولايات المتحدة بسحب عرضها للمساهمة فى بناء السد العالى كان من أكبر أخطائها».

يومها لابد أن جمال عبد الناصر تقبل هذا الراى من نيكسون عن طيب خاطر.. متغاضيا عن حقيقة أن نيكسون نفسه كان نائبا لرئيس الجمهورية حينما اتخذت الولايات المتحدة هذا القرار.

لكن المواطن العادى ريتشارد نيكسون تأكد فى رحلته إلى مصر هذه، من حقيقة رآها بعينيه، وهى أن السد العالى لم يكن مشروعا وهميا لتبرير مرور العمولات بالدولار الامريكى، والجنيه الاسترلينى، إلى عدد من النصابين والأفاقين السياسيين المحليين الذين اعتادت أجهزة المخابرات الأمريكية أن تبشر بهم رسلا باسم «العالم الحر» فى الدول النامية- كما كان التقليد السائد حينئذ- ولكنه مشروع حقيقى.. وسد عال بالفعل.. تتم إقامته فى أسوان، بغير حتى أن يحمل اسم «عبد الناصر» الذى حارب من أجله معارك هددته شخصيا، ونظامه كله، بالسقوط.

تلك إذن حقيقة أدركها المواطن الامريكى ريتشارد نيكسون، فى ظروف عادية تماما، وبغير أن يتصور أحد فى حينها انه سيصبح بعد سنوات قليلة: ريتشارد نيكسون، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

والآن يقضى ريتشارد نيكسون سنته الثانية فى منصب الرئاسة الأمريكية، وهناك صدام فى المصالح يقوم على فكرة «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» من ناحية.. والمقاومة الصلبة من ناحية أخرى، ولان نتائج هذا الصراع سوف تشكل مستقبل العالم العربى والشرق الأوسط لسنوات عديدة تالية، فقد أصبحت السياسة المصرية فى تلك الفترة تقوم على العمل بمثابرة وجدية لتغيير ميزان القوى، بعد الخديعة الكبرى، مصيدة يونيو ١٩٦٧، لم يعد جمال عبد الناصر مستعدا للثقة إلا بقوة الجيش المصرى وقدرته على تصحيح ما جرى بقوة السلاح، وبعض المصادر الإسرائيلية هنا تفسر إصرار جمال عبد الناصر هذا بتسلط فكرة «الثأر» أو «الانتقام» علية.. وهى فكرة لها جذور عند أبناء الصعيد بجنوب مصر، وعبد الناصر هو أصلا من مواليد «بنى مزار» فى الصعيد.

القفزة الأخيرة لحائط الصواريخ

وعلى أية حال فإن الثابت هو أنه، بمبادرة أمريكية أو بغير أمريكية، فإن عبد الناصر لم يكن مستعدا لوضع ثقته فى أى عمل دبلوماسى أو سياسى كبديل لتحرير الأرض، فحتى لو كانت «مبادرة روجرز» فى صالح مصر والعرب بنسبة خمسة وتسعين بالمائة على حد تعبير جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية.. إلا أن عبد الناصر فى المؤتمر القومى الذى عقد بالقاهرة فى يوليو، صارح الأعضاء بأنه يؤمن بأن فرصة نجاح المبادرة لا تتجاوز النصف فى المائة، أما الضمان الحقيقى فى رأى عبد الناصر فهو استكمال القوات المسلحة المصرية لقدراتها العسكرية.

من هنا كان ضمان استكمال حائط الصواريخ في جبهة قناة السويس هو أحد العوامل الأساسية لقبول عبد الناصر تلك الفترة المؤقتة لوقف إطلاق النار، التي تطلبتها مبادرة روجرز، ولان المبادرة لم تستهدف بالطبع إعطاء مزايا عسكرية لمصر، فإن الأمريكيين اشترطوا تثبيت الموقف العسكرى طوال الأشهر الثلاثة فى مسافة خمسين كيلو متر غرب وشرق قناة السويس فيما سيسمى «منطقة التسكين»، وبالطبع ستقوم طائرات الاستطلاع الأمريكية «يو- ٢» بمراقبة تلك المنطقة من الجبهة حتى لا يعدل أحد الطرفين من أوضاعه العسكرية فيها بشكل جذرى خلال فترة الأشهر الثلاثة، وفى الذهن الامريكى وقتها أن مصر لابد ستطلب من الاتحاد السوفياتى القيام بنفس المهمة لحسابها.

من هنا اتفق جمال عبد الناصر مع الفريق محمد فوزى وزير الحربية على وضع خطة عاجلة للقيام بـ «القفزة الأخيرة» لحائط الصواريخ المصرى الجديد فى اتجاه قناة السويس، بحيث تصبح تلك القفزة المفاجئة أمرا واقعا مع الدقيقة الأولى من بدء سريان فترة وقف إطلاق النار.

مفاجآت مذهلة

وبالفعل، فإن قوات الدفاع الجوى المصرى قامت، فى ظل غارات إسرائيلية لا تتوقف وبتضحيات تحملتها فى صلابة، بنقل النسق الأول من الصواريخ إلى الشاطئ الغربى لقناة السويس مباشرة قبل منتصف الليل يوم ٧ أغسطس، بحيث إنه عندما بدأ، سريان وقف إطلاق النار فى الواحدة من صباح ٨ أغسطس، كانت إسرائيل أمام مفاجأة مذهلة على الجانب المصرى.. لن تدرك أبعادها العسكرية الكاملة قبل عدة أيام.

وفى صباح ٨ أغسطس ١٩٧٠ أى فى الساعات الأولى لسريان وقف إطلاق النار، تم اجتماع سرى للغاية.. فى مقر قيادة الدفاع الجوى.. كان الاجتماع العاجل هو بذاته نموذج لما يجرى فى قيادات الطيران والبحرية والجيشين الميدانيين فى الجبهة و.. و..

ضباط وخرائط ولوحات، ثم دخل اللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى متأملا وجوه مساعديه وكبار الضباط، بعضهم لم بنم بالمرة خلال الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة، كلهم تختلط فى وجوههم ملامح الإعياء مع علامات الانشراح، هذا طبيعى، فالأيام الأخيرة كانت أيامهم، فى الواقع أنه منذ ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وهؤلاء الرجال يفاجئون إسرائيل فى كل مرة يقفزون بحائطهم الصاروخى إلى الأمام أكثر وأكثر باتجاه قناة السويس.. ولم يعد هناك

حديث للعالم كله سوى تلك الصواريخ بعد أن خرج الساسة الإسرائيليون يتصايحون علنا فى حالة هيستريا، حتى الولايات المتحدة قالت لإسحاق رابين فى واشنطن: يلزمنا وقت لكى نساعدكم بأنواع جديدة من الأسلحة تواجهون بها حائط الصواريخ المصرية هذا.

الآن يجتمع اللواء محمد على فهمى بكبار مساعديه. بالطبع هناك تهنئة وترحم على أرواح شهداء كانوا جزءا غاليا من الثمن الذى دفعته مصر لإقامة حائطها الصاروخى الجديد، هو فى لحظتها أصبح أكبر حائط صاروخى فى العالم حسب وصف وكالات الأنباء، لكن محمد على فهمى لم يستطرد كثيرا فى التهنئة، لقد استدار إلى أحد معاونيه وطلب منه أن يتقدم إلى الخرائط العسكرية التى تتوسط قاعة الاجتماع ويشرح طبوغرافية سيناء من منظور الدفاع الجوى. ما هى العوائق داخل سيناء ؟ ما هى المواقع ؟ من أين سيجئ العدو بالطيران أو بالمدفعية؟ كيف نناوره؟ نفاجئه؟.. تلك وغيرها أسئلة محددة تتطلب دراسات محددة وإجابات محددة مطلوب إنجازها خلال ثلاثة اشهر.

ثم اختتم اللواء محمد على فهمى الاجتماع قائلا لضباطه: إن التفوق الجوى الاسرائيلى حقيقة يجب أن نعترف بها، لكن ينبغى أيضا ألا ننسى أننا استطعنا تحدى هذا التفوق مرات عديدة خلال حرب الاستنزاف، بل استطعنا تحقيق بعض الانتصارات عليه. وفى معركتنا المقبلة لن يقتصر دورنا على مجرد تحدى هذا التفوق، بل سيكون علينا أن نهزم هذا التفوق ونحطم الأسطورة، الكلمات محددة، فيها ثقة لكن بلا غرور، فيها تأكيد لكن بلا أوهام، فيها تواضع لكن بعلم ومعرفة وقدرة على تحقيق النصر.

أما بالنسبة لعبد الناصر، فقد أدرك أخيرا، وبعد مشوار مضن استمر ثلاث سنوات، أنه يستطيع الآن الوفاء بوعده الذى قطعه على نفسه فى مناسبات عديدة ومن بينها جلسة مغلقة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى- ومحضر الجلسة بتاريخ ٣٠/ ١٢/ ١٩٦٨- من إنه: «سيأتى إن شاء الله اليوم الذى تعبر فيه قواتنا المسلحة إلى شرق القناة لتطرد العدو من سيناء، ولن تكون المعركة هذه المرة معركة أيام ستة أو سبعة، لكنها ستكون معركة حاسمة فى المنطقة».

أما إسرائيل فقد كان الجميع مشغولين بالفرحة الطاغية لوقف إطلاق النار، إن أبا ايبان وزير الخارجية تحدث فى الكنيست عن حدوث تآكل خطير فى سلاح الطيران الاسرائيلى، لكن الحقيقة الكاملة كانت أكثر فداحة مما يتوقعه الجميع- حتى المصريين، فقد ذكرت البلاغات الرسمية المصرية أنها أسقطت فيما بين ٣٠ يوليو و٨ أغسطس ١٦ طائرة، فيما

ستنشـــر مجلة «افييشن ويك» أن ما أســـقطته مصر فعلا هو ١٧ طائرة، بالإضافة إلى إصابة ٣٤ طائرة أخرى، ولكن، حينما ســـتقوم الولايات المتحدة فعلا بتعويض إســـرائيل، تبين أن ما أســـقطته مصر خلال نفس الفترة ١٨ طائـــرة، ولكنها من طراز «فانتوم».. وبعد وقف إطلاق النار قام دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة بمصارحة وزير الخارجية محمود رياض بأن البلاغات المصرية كانت متواضعة تماما بالنسبة للحقيقة.

ويقـــول أبا ايبان وزير الخارجية الاســـرائيلي: «لقد تم اســـتقبال وقـــف إطلاق النار في إســـرائيل بشـــعور من الرضاء، وحينما أعلنته مس مائير في التلفزيون كان رد فعل الراى العام كما لو أننا حصلنا على تسوية سلمية، إن نشرات الأخبار لن تبدأ بعد الآن بالصوت الحزين لمذيع الراديو وهو يخبرنا بأسماء الشباب الاسرائيلى الذين سقطوا فى المعركة، إن ما حصدته الحرب من الأرواح والمعدات الثمينة جعل الحرب مكلفة بالنسبة لنا».

حرب حقيقية

وتقـــول غولـــدا مائير: «بالنســـبة لنا، كانت حرب الاســـتنزاف حربـــا حقيقية تطلبت كل تصميم وشـــجاعة وقوة ومهارة جنودنا وطيارينا للمحافظة على خطوط وقف إطلاق النار، ولكى يحاولـــوا- بصرف النظر عن التكاليـــف- إيقاف تحرك قواعد الصواريخ (المصرية) تماما، وهى القواعـــد التى كان المصريون والروس منهمكين تماما فى إقامتها بالقرب من خطوط وقف إطلاق النـــار، مع ذلك، كانت هناك حدود لقدراتنا علـــى أن نتحمل هذا كله وحدنا، فكان لابد من حصولنا على المساعدة من طائرات وأسلحة، وكان يجب أن نحصل عليها سريعا، وكانت القوة الدولية الوحيدة التى نستطيع التوجه إليها طلبا لتلك المساعدات هى الولايات المتحدة».

ويقـــول حاييم هيرتزوغ الرئيس الســـابق للمخابرات العســـكرية الإســـرائيلية: «لم تكن الحرب بالنسبة لإسرائيل سهلة من حيث القتلى، ببراويز سوداء تظهر يوميا فى الصحف الإســـرائيلية حول صور الجنود والضباط الذين ســـقطوا قتلى فى اليوم الســـابق، لقد كانت بالضرورة حرب أعصاب، وبالنســـبة للراى العام الاسرائيلى الذى اعتاد على نتائج سريعة وســـهلة فـــى الحروب مع العرب، فـــإن الموقف (الذى خلقته حرب الاســـتنزاف المصرية) لم يكن فيه ما يساعد روحهم المعنوية».

أما إسحاق رابين السفير الاسرائيلى فى واشنطن، والذى كان يمطر حكومته فى مرحلة ســـابقة ببرقيات تحثها على تصعيد الغارات الجوية ضد مصر، وفى العمق، فإنه يعترف

الآن بأنه: «الناس فى إسرائيل تنهدوا جميعا فى نفس اللحظة إحساسا بالفرح. ولو لم تكن تلك الورطة المرعبة (المتعلقة بالجانب السياسى فى مبادرة روجرز) لكنت شاركتهم أفراحهم يوم ٨ أغسطس حينما وصلت إلى إسرائيل للتشاور».

كان استدعاء إسحاق رابين للتشاور يتعلق بمحاولة إسرائيل التملص بأى ثمن من الجانب السياسى فى مبادرة روجرز، والآن يزيد على ذلك.. الأمر الواقع الجديد، والمفاجئ، الذى خلقه المصريون باستكمال نقل قواعدهم الصاروخية إلى أقرب نقطة من قناة السويس. فيما تريد إسرائيل الآن أن تثيره مع الولايات المتحدة على أنه انتهاك مصرى لشروط وقف إطلاق النار.

إسرائيل تعترض على التصوير الجوى

ومن المثير للتأمل هنا أن إسرائيل هى التى كانت تخطط من البداية لكى تنتهك شروط وقف إطلاق النار- كما ثبت فيما بعد- وأن دلائل هذا التفكير كانت واضحة من البداية. لقد أكد الأمريكيون من قبل أنهم سيلتقطون صورا جوية بواسطة طائرات «يو- ٢» قبل وقف إطلاق النار، حتى يكون هناك أساس للمقارنة فيما بعد إذا اشتكى أحد الطرفين من حدوث انتهاكات.

ولكن بطريقة لا يمكن تفسيرها تلقى الملحق العسكرى الاسرائيلى فى السفارة بواشنطن تعليمات من شخصية كبيرة فى مؤسسة الدفاع الإسرائيلية بأن يخطر الأمريكيين بأن إسرائيل تعترض على التقاط صور جوية قبل بدء سريان وقف إطلاق النار! إن تلك البرقية العجيبة تضمنت تلميحا غير مفهوم بأنه إذا حاولت الطائرات الأمريكية التقاط صور لمنطقة القناة، فسوف تعترضها إسرائيل- وذلك على الرغم من أن كل شخص يعرف أن قواتنا الجوية لا تملك أية وسيلة لاعتراض طائرات «يو- ٢» ذات الارتفاع الشاهق. وقبل أن يمر وقت طويل اثبت غياب مثل تلك الصور. إنه عقبة كبرى أمامنا فى إقناع الأمريكيين بانتهاكات المصريين لوقف إطلاق النار.

إن إسرائيل فى الواقع وكما هو متوقع دائما، انتهكت وقف إطلاق النار على وجه السرعة بعمل تحصينات جديدة فى خط بارليف لبعض ما دمره المصريون أثناء حرب الاستنزاف، وحصلت مصر فيما بعد على صور من الأقمار الصناعية السوفيتية تثبت تلك الانتهاكات. ولكن.. لا بأس أن تبادر إسرائيل بالهجوم الدبلوماسى كوسيلة للدفاع، ولأنها تدرك أن المرحلة

الحتميــة التالية هي عبور الجيش المصرى قناة الســويس لتحرير ســيناء. فى حماية الشــبكة الصاروخية الجديدة التى تعطى الجيش المصرى الغطاء الكافى حتى مضايق سيناء على الأقل.

وهكذا تلقى إســحاق رابين السفير الاسرائيلى فى واشــنطن، والعائد لتود من مشاورات فى إســرائيل، مكالمة تليفونية من موشــى ديان وزير الدفاع، يبلغه بأن «المصريين حركوا صواريخهم فى منطقة التســكين» داخل نطاق ثلاثين كيلو متر من قناة الســويس، وذهب رابين ينقل الشــكوى إلى الأمريكيين، لكنهم «ساروا فى تحركاتهم على مهل وهم يلتقطون الصور، ثم يقومون بتحميضها، ثم يؤرخون استخلاص النتائج».

وفى البداية رفضت الولايات المتحدة قبول الادعاءات الإســرائيلية. وأعلن ميلغين ليرد وزيــر الدفاع الامريكى أنه ليس لدى المخابرات الأمريكية أية معلومات حول مخالفة مصر لوقف إطلاق النار. وفى اليوم التالى قام دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية فــى القاهرة بتســليم مصر مذكرة من وزير الخارجية الأمريكيــة روجرز، تقتصر على إبلاغ مصر بالشــكاوى الإسرائيلية، التى تقول إن مصر أقامت ١٤ موقعا صاروخيا جديدا داخل منطقة التسكين المتفق عليها، بالمخالفة لترتيبات وقف إطلاق النار.

ولكــن وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز يبلغ مصر أيضــا بإصرار الولايات المتحدة على أن يبدأ الســفير يارنغ ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة مباحثاته على الفور، تنفيذا للمبادرة الأمريكية.

مصر ترفض مزاعم إسرائيل

مــع ذلك فإن حالة الرعب التى انتابت الحكومة الإســرائيلية نتيجة مفاجأة الصواريخ المصريــة، والضغــوط المتلاحقة التى حاولتهــا داخل الإدارة الأمريكيــة. جعلت الولايات المتحدة فى النهاية تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية وتبلغ مصر بمذكرة سرية قدمها بيرجس فى القاهرة يوم ٣ ســبتمبر بأن المخالفات المصرية انتهاك لوقف إطلاق النار. وأن الحكومة الأمريكية ترجو معرفة «وجهة نظر القيادة العســكرية (المصرية) عن الأسباب التى تدعوها إلى اتخاذ مثل تلك الأجراء».

وبالطبع رفضت مصر على الفور كل تلك المزاعم، وتســلم دونالد بيرجس فى اليوم التالى مباشــرة- ٤ ســبتمبر- مذكرة مصرية ما يزال تصنيفها «سرى للغاية» فى الملفات المصرية، وتنشر فى ملاحق هذا الكتاب.

وطبقـا للمذكرة الرسمية المصرية، فان القيادة العسـكرية المصرية ترى أن تحريك مواقع الصواريخ المصرية فى منطقة القناة هو «إجراء عسـكرى تسـتدعيه سلامة مواقع الصواريخ وسلامة القوات المسلحة، وأضافت القيادة أن تحريك الصواريخ فى داخل المنطقة يمكن أن يؤدى إلى مهاجمة إسـرائيل لمواقع الصواريخ فى أية لحظة وأن تلحق الخسائر بها، وذلك لتأكيدها من وجودها فى هذه الموقع إذا لم تتحرك منها».

«ولذلـك فإنه عندما تطالبنـا أمريكا بإهمال هذه النقطة الحيوية من أجل حماية مواقعنا ضد أى هجوم مفاجئ من إسرائيل، فإن ذلك يحتم علينا أن نضع سؤالا للولايات المتحدة عما إذا كانت تستطيع أن تقدم لنا ضمانا بأن إسرائيل لن تقوم بأى هجوم على هذه المواقع، وأنـه إذا نقضت إسـرائيل هذا الضمان فما هو الجزاء الذى سـتقوم بـه الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الحالة ضد إسرائيل»؟.

وبالتدريج سوف تجد الولايات المتحدة نفسها معزولة تماما عن المجتمع الدولى فى تبنيها للحجج الإسـرائيلية ضد شـبكة الصواريخ المصرية ومطالبتها مصر بتصحيح الانتهاكات، وسـوف ينتهى الأمر فى شـهر نوفمبر ١٩٧٠ بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة ضد الحجج الإسـرائيلية، بل والحاجة إلى الانسحاب الاسـرائيلى الكامل والمبكر من الأراضى العربيـة المحتلـة، وعلى حد تعبير أبا ايبان وزير الخارجية الاسـرائيلى تعليقا على ذلك القرار: «لقد تحركت ضدنا أغلبية كاسحة فى الأمم المتحدة موالية للعرب».!

مقابلة فاترة بين رابين ونيكسون

علـى أيـة حـال لم نكن قد وصلنـا بعد إلى تلـك النقطة فى أغسـطس، ١٩٧٠ حينما ذهب السـفير الاسرائيلى إسحاق رابين إلى مستشـاره الأول داخل الإدارة الأمريكية هنرى كيسـنجر، يقترح عليه دعوة غولدا مائير رئيسـة وزراء إسـرائيل إلى واشنطن، لعلها تقنع الرئيس نيكسـون بعدم التمسـك بالجانب السياسى فى مبادرة روجرز، وقال له كيسـنجر: لا.. ليس الوقت ملائما بعد لتوجيه مثل تلك الدعوة، ولكنك ستقابل الرئيس نيكسون.

وحينمـا ذهب رابين ليقابل الرئيس نيكسـون، فى ١٧ أغسـطس، كانـت المقابلة فى هذه المرة تتم فى غرفة الخرائط بالبيت الأبيض، وكان نيكسـون مصحوبا بالكسـندر هيغ، نائب كيسـنجر، وليس كيسـنجر، وفى المقابلة حاول رابين إقناع الرئيس نيكسـون بأن تؤجل إسـرائيل المشـاركة فى مباحثات يارنغ- تنفيذا لمبادرة روجرز- إلى أن تصحح مصر

انتهاكاتها لوقف إطلاق النار وتسحب الصواريخ التى حركتها قرب القناة، لأن العسكريين الإسرائيليين يضغطون على غولدا مائير بشكاويهم المتلاحقة من خطورة تلك الصواريخ.

لكن الرئيس نيكسون يرد عليه قائلا: إن لدى أنا الأخر ما أعانيه من الضغوط السياسية.. والراى العام الامريكى هو الآن فى مزاج يحبذ السلام، وفوق كل شيء فإننى مضطر لتشجيع بدء المباحثات (مع يارنغ) للتوصل إلى تسوية سياسية.

ويقول رابين: لقد وجدت نفسى أتحدث فى اتجاه، بينما الرئيس (نيكسون) يتحدث فى اتجاه آخر مختلف، حيث قال لى: «يجب ألا تسمح إسرائيل لنفسها بتحمل اللوم عن رفضها التفاوض (مع يارنغ)...».

وفى اليوم التالى سافر رابين إلى إسرائيل فورا لإبلاغهم بهذا الموقف، حيث: «وجد مجلس الوزراء فى حالة اضطراب وغليان».. بسبب الرعب من حائط الصواريخ المصرية فى قناة السويس.

ثم عاد رابين إلى واشنطن بإلحاح من رئيسة وزرائه للحصول على دعوة لزيارة واشنطن و التباحث مع الرئيس نيكسون، ونيكسون يوافق فى النهاية، ولكنه يحدد لها موعدا بعد شهر كامل.

□□□